

تفسير ابن كثير

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ

ثم قال متوعدا لهم ومتهددا : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) . قال سليمان بن مهران الأعمش ، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ، عن مسروق قال : دخلنا المسجد - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كندة ، فإذا رجل يقص على أصحابه : (يوم تأتي السماء بدخان مبين) تدرّون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام . قال : فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له ، وكان مضطجعا ففزع فقعد ، وقال إن الله عز وجل قال لبيكم - صلى الله عليه وسلم - : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) ، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : " الله أعلم " سأحدثكم عن ذلك ، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية : فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما

بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - [قال] قال الله تعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء
بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) ، فأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر ، فإنها قد هلكت . فاستسقى لهم فسقوا فأنزل الله
: (إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون) قال : ابن مسعود : فيكشف العذاب عنهم يوم
القيامة ، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله : (يوم نبطش البطشة الكبرى
إنا منتقمون) ، قال : يعني يوم بدر . قال ابن مسعود : فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم
، والقمر ، والبطشة ، واللزام . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين . ورواه الإمام أحمد
في مسنده ، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما ، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من
طرق متعددة ، عن الأعمش ، به وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا ، وأن
الدخان مضى ، جماعة من السلف كمجاهد ، وأبي العالية ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك
، وعطية العوفي ، وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا جعفر
بن مسافر ، حدثنا يحيى بن حسان ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عبد الرحمن الأعرج في
قوله : (يوم تأتي السماء بدخان مبين) قال : كان يوم فتح مكة . وهذا القول غريب جدا

بل منكر. وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما تقدم من

حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه - قال : أشرف علينا رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - من غرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : " لا تقوم الساعة

حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج

ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ،

وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو :

تحشر الناس - : تبیت معهم حيث باتوا وتقبل معهم حيث قالوا " تفرد بإخراجه مسلم في

صحيحه . وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لابن الصياد : " إني

خبأت لك خبأ " قال : هو الدخ . فقال له : " اخساً فلن تعدو قدرك " قال : وخبأ له رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) . وهذا فيه إشعار

بأنه من المنتظر المرتقب ، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان ، وهم

يقرطمون العبارة ؛ ولهذا قال : " هو الدخ " يعني : الدخان . فعندها عرف رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - مادته وأنها شيطانية ، فقال له : " اخساً فلن تعدو قدرك " . ثم قال

ابن جرير : وحدثني عصام بن رواد بن الجراح ، حدثنا أبي ، حدثنا سفيان بن سعيد الثوري ، حدثنا منصور بن المعتمر ، عن ربيعي بن حراش قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن أول الآيات الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن أبين ، تسوق الناس إلى المحشر ، تقيل معهم إذا قالوا ، والدخان - قال حذيفة : يا رسول الله ، وما الدخان ؟ فتلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) - يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره " . قال ابن جرير : لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً وإنما لم أشهد له بالصحة ؛ لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث : هل سمعه من سفيان ؟ فقال له : لا قال : فقلت : أقرأته عليه ؟ قال : لا قال : فقلت له : فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به ؟ فقال : لا فقلت له : فمن أين جئت به ؟ فقال : جاءني به قوم فعرضوه علي ، وقالوا لي : اسمعه منا . فقرءوه علي ثم ذهبوا به ، فحدثوا به عني ، أو كما قال . وقد أجاد ابن

جرير في هذا الحديث هاهنا ، فإنه موضوع بهذا السند ، وقد أكثر ابن جرير من سياقه في
أماكن من هذا التفسير ، وفيه منكرات كثيرة جدا ، ولا سيما في أول سورة " بني
إسرائيل " في ذكر المسجد الأقصى ، والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ،
حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا خليل ، عن الحسن ، عن أبي سعيد الخدري -
رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يهيج الدخان بالناس ،
فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة ، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه " .
ورواه سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي سعيد الخدري موقوفا .
ورواه عوف ، عن الحسن قوله . وقال ابن جرير أيضا : حدثني محمد بن عوف ، حدثنا
محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثني أبي ، حدثني ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن
عبيد ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن ربكم
أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل
مسمع منه والثانية الدابة والثالثة الدجال " . ورواه الطبراني عن هاشم بن يزيد ، عن محمد
بن إسماعيل بن عياش ، به وهذا إسناد جيد . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد

اللَّهُ بن صالح بن مسلم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي ،
رضي الله عنه ، قال : لم تمض آية الدخان بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وتنفخ
الكافر حتى ينفد . وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع ، عن عبد الملك بن المغيرة
، عن عبد الرحمن بن البيهقي ، عن ابن عمر قال : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة
الزكام ، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد ، أي : المشوي
على الرضف . ثم قال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية عن ابن جريج ، عن
عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوت على ابن عباس ، رضي الله عنهما ، ذات يوم فقال :
ما نمت الليلة حتى أصبحت . قلت : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن
يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ،
عن ابن عمر ، عن سفيان ، عن عبد الله بن أبي يزيد ، عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن
ابن عباس فذكره . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن . وهكذا
قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح
والحسن وغيرهما ، التي أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات

المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين)
أي بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود ، رضي الله عنه : إنما هو خيال
رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد .